بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. أما بعد:

قال المصنف – رحمه الله تعالى –: **[كتاب الجهاد]**

يقول المصنف – رحمه الله –: **[كتاب الجهاد]** "الجهاد" مأخوذ من الجهد، وهو: طاقة الإنسان ووسعه. يقال: "اجتهد في الشيء" إذا بذل طاقته ووسعه في تحصيله أو دفعه. ولا تستعمل هذه المادة إلا في الشيء الذي فيه مشقة وعناء، فيقال: اجتهد في حمل الصخرة، ولا يقال: اجتهد في حمل خردلة. والجهاد في اصطلاح العلماء: بذل الوسع والطاقة في قتال أعداء الله لإعلاء كلمة الله ﷻ.

وهذا الباب بابٌ عظيم دلت عليه نصوص الكتاب والسنة عن رسول الله ﷺ وبينت أحكامه، والأصل في مشروعيته دليل الكتاب والسنة، فمن الكتاب: قوله ﷻ: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ وقال ﷻ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وقال ﷻ: ﴿ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ﴾ والآيات في الجهاد ومشروعية الجهاد وفضل الجهاد كثيرة. وثبتت الأحاديث عن رسول الله ﷺ بمشروعيته، فقد جاهد – عليه الصلاة والسلام –، وأمر أصحابه وأمته – صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إلى يوم الدين – بالجهاد في سبيل الله وقتال أعداء الله لإعلاء كلمة الله، والأحاديث في هذا – أيضًا – كثيرة جدًّا، وسيذكر المصنف جملةً منها. وغزا – عليه الصلاة والسلام – بنفسه تسعًا وعشرين غزوة، قاتل فيها – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –

في تسعٍ منها، وهي: غزوة بدر، وأحد، والمريسيع، والخندق، وفتح مكة، وحنين، والطائف، وخيبر، وبني قريظة. فهذه تسع غزوات غزا فيها – عليه الصلاة والسلام – بنفسه وقاتل فيها – صلوات الله وسلامه عليه –. وكذلك أمر – عليه الصلاة والسلام – بالجهاد في سبيل الله في الأحاديث الصحيحة – في الصحيحين وغيرهما – عنه – عليه الصلاة والسلام – ومنها: قوله – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا هم فعلوا ذلك: فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم وأعراضهم، وحسابهم على الله) وبعث – عليه الصلاة والسلام – بعوثه للجهاد في سبيل الله – صلوات الله وسلامه عليه – والسيرة زاخرةٌ بذلك. وأجمع العلماء – رحمهم الله – على شرعية الجهاد في سبيل الله.

وفي هذا الجهاد إعلاءٌ لكلمة الله ﷻ، شرعه الله ﷻ لتكون كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى، والمقصود بها: إعزاز هذا الدين، ولذلك يعتبر حمى من الله ﷻ لهذه الأمة وعصمة منه متى قاموا بحقه وحقوقه وأدوه على الوجه الذي يرضي الله ﷻ، وأقاموا به شرع الله ﷻ وعملوا فيه بهدي رسول الله ﷺ: حصل من ورائه الخير الكثير، ولذلك لما توفي رسول الله ﷺ وجاهد أصحابه – رضي الله عنهم – من بعده الجهاد الشرعي على الصفة الشرعية المعتبرة: فتح الله لهم قلوب العباد وفتح لهم البلاد، فأعلى الله بهم كلمته، ونصر بهم دينه – رضي الله عنهم وأرضاهم – وأعز الله بهم الإسلام وأعزهم بالإسلام. ولذلك جعل الله هذه الشعيرة ذروة سنام الإسلام، ووردت الآيات والأحاديث عن رسول الله ﷺ ترغب فيها وتبين فضلها؛ لأن أعداء الإسلام لا يتركون المسلمين، وأنهم يودون عنت المسلمين كما قال تعالى: ﴿وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ ولذلك شرع الله ﷻ الجهاد لمصالح عظيمة، لكنه ينبغي أن يؤديه ويقوم به المسلم وفق الأسس الشرعية متبعًا فيه هدي رسول الله ﷺ وسنته.

يقول المصنف – رحمه الله –: **[كتاب الجهاد]** أي: في هذا الموضع سأذكر لك جملةً من الأحاديث عن رسول الله ﷺ والتي تتعلق بأحكام الجهاد في سبيل الله.

قال المصنف – رحمه الله تعالى –: **[٤٢٧ – عن عبد الله بن أبي أوفى ﷺ: أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم: فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ثم قال النبي ﷺ: (اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)].**

اشتمل هذا الحديث الشريف على سننٍ من سنن رسول الله ﷺ في الجهاد في سبيل الله ﷻ، وهذه السنة انتظمت أمورًا، منها: خطبته – عليه الصلاة والسلام – قبل المعركة وقبل لقاء العدو، وهذه الخطبة تعتبر نبراسًا للمجاهدين في سبيل الله وهو ما يسمى بالإعداد المعنوي، فالمجاهد في سبيل الله يحتاج إلى إعدادٍ ماديٍّ ومعنوي، فكان من هديه – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – قبل لقاء العدو: أن يشحذ همم أصحابه، وأن يقوي عزائمهم على نصرة الدين وإعلاء كلمة رب العالمين، وكانت كلماته – عليه الصلاة والسلام – عظيمة الوقع في النفوس، كان من هديه – عليه الصلاة والسلام –: أن يقول الكلمة والكلمتين والثلاث والخطبة فتتحرك لها القلوب والقوالب، حتى إن الصحابي – رضي الله عنه وأرضاه – لما سمع نبي الأمة يشحذ الهمم إلى الجهاد في سبيل الله ويشحذها لبذل الأنفس رخيصةً في طاعة الله ومرضاته وإعزاز دينه قال ﷺ: "جنة عرضها السماوات والأرض! لئن عشت حتى آكل هذه التمرات إنها لحياةٌ طويلة" ثم رمى التمرات وانغمس في العدو حتى استشهد في سبيل الله ﷻ. كان – عليه الصلاة والسلام – نبراسًا لأصحابه – رضي الله عنهم – ولأمته من بعدهم في ما قبل المعركة، وأثناء المعركة والجهاد، وبعد الجهاد في سبيل الله، فكان لا يفتر – عليه الصلاة والسلام – عن بيان المنهج القويم والصراط المستقيم في إعلاء كلمة الله ﷻ وقتال أعداء الله.

قال **[عبد الله بن أبي أوفى]** وهو عبد الله بن علقمة بن خالد بن هوازن الأسلمي – رضي الله عنه وأرضاه –، قيل: إنه شهد الخندق، واتفق أهل السير على أنه ممن بايع بيعة الرضوان، فهو من أصحاب الشجرة – رضي الله عنهم وأرضاهم، وجعل أعالي الفردوس مسكنهم ومثواهم – الذين قال فيهم النبي ﷺ: (لن يلج النار أحدٌ بايع تحت الشجرة) عبد الله بن أبي أوفى، وأبو أوفى اسمه: علقمة بن خالد – كما ذكرنا –، وله صحبة هو وأبوه وأخوه زيد – رضي الله عن الجميع وأرضاهم –، وتوفي بالكوفة سنة ستٍ وثمانين، وقيل: سبع، وقيل بغيرها، قيل: إنه آخر الصحابة – رضي الله عنهم – موتًا بالكوفة. سمع من رسول الله ﷺ، فأبصرت عيناه وسمعت أذناه هذه الكلمات الطيبات المباركات وقد التقى الزحفان وتقابل الصفان، فوقف – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – بهذه الخطبة العظيمة، قليلة الكلمات عظيمة المعاني والعبر والآيات، نبراسٌ للمجاهدين وثباتٌ للغزاة والمرابطين، بين فيها هديه المبين – صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إلى يوم الدين –.

[أن النبي ﷺ كان في بعض أيامه التي لقي فيها العدو] العرب من عادتهم: أن يسموا الوقعة باليوم ولو كانت أكثر من يوم، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ وقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ فسمى الوقعة باليوم وهذا من عادة العرب.

[أن النبي ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو] ولم يبين أي غزوة وهذا من الجهالة التي لا تضر. قال ﷺ: (انتظر حتى إذا زالت الشمس) في رواية: **[حتى إذا مالت الشمس]** كان من هديه – عليه الصلاة والسلام –: أن يصبح العدو بكرة فيفجأهم في أول النهار، ولذلك لما أتى خيبر – كما في الموطأ وغيره – وصبحهم وخرجوا إلى مزارعهم

فرأوا النبي ﷺ ومعه أصحابه أسد الشرى – رضي الله عنهم وأرضاهم –، قالت يهود: محمدٌ والخميس! فأصابهم الذعر وقال – بأبي وأمي –: (صدق الله، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين). فكان من هديه: أنه يأتي في أول النهار، أنه يعاجل ويباغت العدو بكرة ويقاتل في أول النهار بكرةً، فإذا فاته أول النهار وكان الضَّحى – وهو بعد ارتفاع الشمس بأكثر من ساعتين إلى ثلاث –: كان – عليه الصلاة والسلام – يمسك، وهو يقارب الزوال فما بين الضُّحى وانتصاف النهار الضَّحى، فهذا الضَّحى كان – عليه الصلاة والسلام – إذا قارب فيه الزوال أمسك عن القتال ولا يبدأ فيه بالقتال، وهذا من سنته وهديه – عليه الصلاة والسلام – فيمسك حتى تزول الشمس، وقوله في هذه الرواية: **[انتظر حتى إذا مالت الشمس]** وقد بين النعمان بن مقرن – رضي الله عنه وأرضاه – سبب ذلك فقال: "كان إذا غزا قاتل في أول النهار، وإلا انتظر حتى تزول الشمس وتهب الرياح و يأتي النصر" فهذه هي سنته – عليه الصلاة والسلام –.

وقوله: **[حتى إذا مالت الشمس]** (حتى إذا زالت الشمس) إذا طلع النهار وأشرقت الشمس يكون ظلها في جهة المغرب، فتسير بقدرة الله ﷻ حتى تنتصف في كبد السماء، وهي ساعة انتصاف النهار التي بين النبي ﷺ أنها الساعة التي تسجر فيها أبواب جهنم – أعاذنا الله والمسلمين وإياكم منها –. فكان من هديه – عليه الصلاة والسلام –: أنه ينتظر حتى تزول فالشمس – تمسك عن الحركة – وهذا ما وصفه بقوله – عليه الصلاة والسلام –: (حتى إذا قام قائم الظهيرة) بمعنى: أن الظل لا يتحرك؛ لأن الظل تبع للشمس فإذا تحركت تحرك، فإذا انتصف النهار ووقفت الشمس عن المسير تأخذ لحظات تطول وتقصر على حسب فصلي الشتاء والصيف، فإذا تحركت عن مكانها يقال: زالت، ويقال: مالت، ويقال: دلكت، ويقال: دحضت الشمس، قال تعالى: ﴿ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمۡسِ ﴾ أي: زوالها

وحركتها. ومنه: حديث أبي برزة ﷺ في الصحيحين: "كان النبي ﷺ يصلي الهجير التي تدعونها "الأولى" – أي: صلاة الظهر – حين تدحض الشمس) أي: تزول وتتحرك.

فقال: **[انتظر حتى إذا مالت]** فإذا مالت – بمعنى: أنها تسير في جهة المغرب – فينقلب الظل إلى جهة المشرق، و**[مالت الشمس]** أي: إلى جهة المغرب بعد أن كانت في جهة المشرق، وهو بداية نصف النهار الثاني. في هذه الساعة التي تبدأ فيها الشمس بالميل ويبدأ فيها الزوال تهب الرياح عادة، وبينت السنة أن الريح نصر بها – عليه الصلاة والسلام –، ونصر بنوعٍ خاصٍّ منها وهو الصبا، كما في الحديث الصحيح عنه – عليه الصلاة والسلام – أنه قال: (نصرت بالصبا، وأهلكت عادٌ بالدبور) والصبا هي: الريح التي تأتي من جهة الشرق، والدبور هي: الريح التي تأتي من جهة الغرب، والشمأل من جهة الشمال، والجنوب التي تأتي من جهة الجنوب. فقالوا: إنه تتحرك الرياح، وهذا مشاهدٌ مجرب – أنه عند زوال الشمس تتحرك الرياح –.

وانتظر – عليه الصلاة والسلام – حتى إذا مالت الشمس، قال: **[قام]** يعني: قام خطيبًا. فيه دليلٌ على مشروعية خطبة القائد ومن يقوم على الجيش عند مصافة العدو – سواء وجد السبب أو لم يوجد السبب –، خاصة إذا كانت في الخطبة مصلحة من شحذ الهمم لقتال أعداء الله وكسر شوكتهم. فقام ﷺ قام – بأبي وأمي – شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، قام لكي يشحذ الهمم في قتال أعداء الله والجهاد في سبيل الله – صلوات الله وسلامه عليه إلى يوم الدين –، فقال: **[(أيها الناس)]** وهذه الصيغة من صيغ العموم **[(أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو)] [(لا تتمنوا لقاء العدو)]** التمني هو الطلب و**[(لا تتمنوا)]** نهي عن طلب لقاء العدو، بمعنى: أن الإنسان يتمنى أن يلقى العدو فيقاتله أو الكافر فيجاهده. **[(ولكن سلوا الله العافية)]** نهيه – عليه الصلاة والسلام – عن تمني لقاء العدو فسر بوجهين، قيل: إن تمني لقاء العدو لا يأتي إلا عن غرور بالنفس، فالشخص قد

يغتر بقوته ويعجب بشجاعته فيتمنى لقاء العدو. والسبب الثاني: أنه يتمنى لقاء العدو استخفافًا بالعدو. وكل واحدٍ منهما مظنة الهزيمة وسببٌ من أسباب الفشل؛ فإن العجب يورث البلاء في الدنيا والآخرة، ولذلك بين ﷻ أنه طريق الهزيمة، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ جاء هذا البلاء بسبب العجب. والاستخفاف بالعدو من أسباب الهزيمة؛ لأنه مهما كنت في قوة ومهما كان من معك في قوة واتحاد فلا تستخف بالعدو، ولذلك في السنن في السير والجهاد في سبيل الله: كان الحكماء والقواد يحرصون على أن المسلمين أثناء لقائهم للعدو وقبل لقائهم للعدو أن لا يستخفوا به، نعم يهون من أمر العدو ولكن ليس إلى درجة يستخف به، فتكون سببًا في عدم إعداد العدة المنبغية، فتكون ثغرة في المسلمين فيدخل العدو ويصيبها! ولذلك هذان الأمران، الأول: العجب، والثاني: الاستخفاف بالعدو. لا ينبغي للقائد ولا لمن معه أن يغرس ذلك في نفس المجاهد في سبيل الله ﷻ، بل المفروض العكس في حدودٍ وقيودٍ وضوابط؛ فإن النبي ﷺ أمر نعيمًا ﷺ إن كان بنو قريظة قد نقضوا العهد قال له: (فالحن لنا لحنًا ولا تفت في عضدنا) فصحيح أن إخفاء بعض الحقيقة عن العدو قد يكون من المصلحة، وهذا أمر يرجع تقديره وضبطه إلى القواد وإلى من تحمل هذه المسؤولية في السير والجهاد في سبيل الله.

[(لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية)] **[(اسألوا الله)]** أي: ادعوه **[(العافية)]** السلامة. وأعظم العافية: عافية الدين ثم عافية الدنيا، وأعظم نعمةٍ بعد الإسلام: أن يرزق الإنسان العفو والعافية في دينه ودنياه، ولذلك قال – عليه الصلاة والسلام – لما جاءه العباس يسأله: (يا عم رسول الله، سل الله العافية. يا عم رسول الله، سل الله العافية. يا عم رسول الله، سل الله العافية). وكان من هديه – عليه الصلاة والسلام –: أنه يسأل الله العافية في دعائه وأذكار الصباح والمساء، كما قال – عليه الصلاة والسلام

-: (اللهم إني أسألك العافية في ديني ودنياي) فسأل الله العافية، وهذه أدركنا عليها العلماء والأخيار أنهم يكثرون من سؤال الله العافية، فيقول الإنسان: اللهم إني أسألك العافية. فالعافية سلامة، ومن سلم غنم ومن سلم فاز فوزًا عظيمًا، فلا يتعرض الإنسان للفتن والمحن. وقال بعض العلماء: يستفاد من نهي النبي ﷺ عن تمني لقاء العدو: أن هذا صورة من الأصل، والأصل: أن الإنسان ينبغي أن لا يتمنى البلاء. ففي بعض الأحيان: قد يكون الإنسان في عافية في بدنه أو في عافية في ماله أو أهله أو ولده، ويقول: أريد الأجر لو ابتلاني الله لصبرت. فهذا لا يجوز للإنسان؛ لأنه مطالبٌ بشكر النعمة، والله يبتلي بالشكر كما يبتلي بالصبر، فينبغي للإنسان أن لا يسأل الله الفتن، فهو إذا سأل العدو سأل الفتنة؛ لأنه سيختبر ويمتحن، وقد يعجز إن لم يتداركه الله برحمته، فيسأل المسلم ربه العافية والسلامة.

[(لا تتمنوا لقاء العدو...فإذا لقيتموهم فاصبروا)] حكمة والله! كلماتٌ طيباتٌ مباركات من مشكاة النبوة، كلمات من هذا النبي الكريم - بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه - الذي لا ينطق عن الهوى. لما نهاهم عن تمني لقاء العدو أحيى في نفوسهم وقلوبهم أن يكونوا أمة الصبر فقال: **[(فإذا لقيتموهم فاصبروا)]** فإذا ابتلي الإنسان فالمنبغي عليه الصبر، الصبر الذي هو الروح في جسد الدين كما قال عليٌّ ﷺ: "ألا إن منزلة الصبر من الإيمان كمنزلة الروح من الجسد" ثم يصيح بثلاث كلمات: "ألا لا إيمان لمن لا صبر له، ألا لا إيمان لمن لا صبر له، ألا لا إيمان لمن لا صبر له".

[(فإذا لقيتموهم)] لقيتم العدو **[(فاصبروا)]** هذه النعمة التي ما أعطي عبدٌ عطاءً أفضل من الصبر، كما ثبت بذلك الأثر الصحيح: "ما أعطي العبد عطاءً أفضل من الصبر" الذي قال عنه عمر بن الخطاب ﷺ: "وجدنا ألذ عيشنا بالصبر".

[(**إذا لقيتموهم**)] أي: إذا لقيتم العدو [(**فاصبروا**)] هذا يأتي على صورتين: إذا لقوهم في حال الغزو، فالتحم الصفان وتقابل الزحفان وتقاتلوا، فشعار المؤمن – سرًّا وجهارًا، ليلًا ونهارًا، عشيًّا وإبكارًا، ظاهرًا وباطنًا –: أن يكون من الصابرين، فإذا صبر بوأه الله منزلةً عظيمة، فمن أعظم ما يكون الصبر جزاءً وثوابًا من الله إذا كان في الجهاد في سبيل الله ﷻ، أن يصبر على ما يصيبه في جسده وفي نفسه، وفي إخوانه وفي رفقائه، وعلى ما يرى وما يسمع، فإذا صبر صبره الله ﷻ. ولذلك جعل الله النبي ﷺ أسوةٌ للأمة، فكسرت رباعيته وشج وجهه – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – وسال دمه، ورأى عمه مجندلًا على الأرض قد بقرت بطنه وأخرجت أحشاؤه – رضي الله عنه وأرضاه – وقد قطع ومزق من الطعنات، ورأى من أصحابه من يطعن أكثر من سبعين طعنة في سبيل الله ﷻ، ومع ذلك بلغ من الصبر أكمله وأجمله وأفضله – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –، فقال وهو يرى شهداء أحد على الثرى وقد سالت دماؤهم وقطعت أشلاؤهم: (زملوهم في ثيابهم؛ فإني شهيدٌ لهم بين يدي ربهم) صلوات الله وسلامه عليه.

وكان – عليه الصلاة والسلام – الآية والمعلم والدليل لأصحابه، كان إذا حمي الوطيس يأتون إلى جواره – عليه الصلاة والسلام – يحتمون به بعد الله؛ مما يرون من ثباته. ويوم حنين وقد سار الجيش أكثر من عشرة آلاف حتى إذا استبطنوا الوادي، وقد كمنت لهم هوازن على ضفتي الوادي، وكان ذلك عند بزوغ الفجر وغبش الليل لا زال باقيًا، فكانت هوازن إذا رمى الرجل منهم سهمه يصيب من خبرتهم وقوتهم في الرمي، فانهالوا بالسهام على أصحاب رسول الله ﷺ وعلى الجيش، وأخذوا بعنصر المباغتة، فأصاب الصحابة – كما أخبر الله ﷻ – فروا، وثبت النبي ﷺ على بغلته الشهباء وهو يقول: (أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبدالمطلب). هو القائد – عليه الصلاة والسلام – وهو الإمام، والناس من عادة الحروب: تحرص على قائدها، وتحرص أن لا يعرفه العدو، وما صاح أمام العدو يعرف بنفسه مثل يوم

حنين، وليس هناك ساعة فر فيها الصحابة مثل يوم حنين! ولذلك ذكرها الله في كتابه، من قوة شجاعته وجلده وصبره.

كان – عليه الصلاة والسلام – لا يعرف الخوف إلا من الله، أوتي – عليه الصلاة والسلام – الذي أسري به وعرج إلى ملكوت السماوات السبع فرأى ما رأى ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴾ فهانت عليه الدنيا وما فيها! فكان أشجع الناس وأثبت الناس جنانًا. جاءت الصيحة في المدينة فركب على فرس أبي طلحة، وخرج الصحابة أرسالًا فإذا به قادم – عليه الصلاة والسلام – من الصوت يقول لهم: (لا تَراعوا) أشجع الناس وأثبتهم جنانًا – صلوات الله وسلامه عليه –. كان يأمر بالصبر وهو إمام الصابرين (اصبروا إذا لقيتم العدو) هذا النوع الأول: أن ترى المعركة، ترى فيها أمورًا تشيب منها الرؤوس، وترجف منها القلوب! ولكن ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ ﴾ يرى الرجل أباه يقتل، وأخاه يجندل، وابنه يصرع، ويرى الرقاب تضرب، والأشلاء تقطع، ويرى الصيحات، ويرى الآهات، ويرى أشياءً لا تخطر له على بال! إن هذا الدين ما بلغ المشرق والمغرب إلا وقد سالت له دماء، إلا وقد دفع ثمنه لكن لرجال شهد الله من فوق سبع سماوات ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ نسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يلحقنا بهم غير خزايا ولا مفتونين، ولا مغيرين ولا مبدلين.

هذا النوع الأول **[(إذا لقيتموهم فاصبروا)]** فضرب الصحابة – رضوان الله عليهم – المثل في الصبر، ولذلك لما انقشعوا عن رسول الله ﷺ في يوم حنين قال – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –: (يا عباس) وثبت معه قيل: عشرة، وقيل: تسعة وعاشرهم النبي ﷺ، فيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي والعباس وقُثَم وأيمن ابن أم أيمن [...] والحارث بن أبي سفيان ابن عم رسول الله ﷺ. فقال: (يا عباس، أدع لي أصحاب الشجرة، أدع لي أصحاب

السمرة) وكان العباس رجلًا جهوري الصوت، فصاح فيهم: "يا أصحب الشجرة، يا أصحاب السمرة" فانعطفوا عليه – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه – كما تنعطف البقرة على ولدها من الحنان، انعطفوا عليه يشترون الموت فأقبلوا عليه كأُسْد الشرى – رضي الله عنهم وأرضاهم –. وما فروا جبنًا وخوفًا، وإنما هو عنصر المباغتة، وهذا يقع؛ لأن الحرب فيها كر وفر، ومن هنا: كان الصحابة – رضوان الله عليهم – من أصدق الناس صبرًا عند اللقاء، ولذلك قال قائلهم: "وإنا لصُبر عند اللقاء" وصدقوا ما قالوا.

النوع الأول من الصبر عند اللقاء في هذه الحال، وهي: حال مواجهة الأعداء، ومكابدة الجهاد بالقتل والقتال.

النوع الثاني من الصبر عند لقاء العدو: أن يغلب العدو المسلمين، فيستبيح محرماتهم وينتهك المحرمات، وعندها تطيش العقول، وترجف القلوب؛ لأن المسلم عنده حمية للدين، ومن لا حمية له ليست عنده روح، فلذلك يتألم، وهذا الألم ربما سيطر على نفسه، فيؤثر على حكمته وثباته وعقله، فلربما إذا طاش فعل ما لا يليق فعله أو قال ما لا يليق قوله! ومن هنا: أمرت الأمة بالصبر عند لقاء العدو. فإذا لقي العدو المسلمين وغلبهم وقهرهم [(**فإذا لقيتموهم فاصبروا**)] اصبروا بتصبير الله حينما يعلم المسلم أن الله ﷻ بيده ملكوت كل شيء، وأن الله ﷻ يمهل ولا يهمل، وأن الله يداول الأيام بين الناس، وأنه مرت على الإسلام أيام شعت أنوار الرسالة على مشارق الأرض ومغاربها، يؤمر بأمر الله وينهى بنهي الله، فكيف أصبحت اليوم بأمور قد لا يصدقها العقل ولا تصدقها النفوس، فالذي داول الأيام على ذلك قادر على أن يغير ويبدل ﴿**وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ**﴾ فإذا رأى مثل هذا يصبر باليقين بالله ﷻ، ولذلك قال تعالى: ﴿**فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟**﴾ يصبر ثابتًا على دينه، قويًّا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم،

فمهما رأى من الفتن والمحن عنده يقين أن الله يغلب ولا يغلب، وأن الله يطلب ولا يطلب، وأن لله حكمة، وأن الله ﷻ وصف نفسه بصفتين عظيمتين – وكل صفات الله عظيمة –، فقال – سبحانه –: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ﴾ فالله له العزة وهي: الغلبة والقهر. ولذلك لما دمر الأمم فأهلك قوم نوح وعادًا وثمود وقوم لوط وقوم شعيب، قال – سبحانه –: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ﴾ عزيز على من عصى، رحيم بمن خاف واتقى. فيستجمع المسلم في حال غلبة العدو وقهره للمسلمين أن الله عزيز رحيم، فلا يصيبه الوهن ولا الضعف، ولا يستجيب للفتن والمحن ويتسامح ويتساهل على وجه لا يرضي الله ﷻ، وإنما يتمسك بدينه، ويستعصم بحبل الله ويعتصم بدين الله، ويعلم أن الله ﷻ له الحكمة البالغة، وأن لا بد لليل من فجر، وإن غدًا لناظره لقريب، ودوام الحال من المحال.

ومن قرأ التاريخ رأى العبر، فالصبر الذي أمر به النبي ﷺ عند لقاء العدو لا يختص على حال الجهاد والقتال، بل يشمل جميع أحوال أذية الأعداء للمسلمين، ودخولهم بين المسلمين بالقوة الحسية والمعنوية. عليه أن يصبر؛ فهذه وصية النبي ﷺ، فطوبى لمن عمل بها، وثبت عليها، وسأل الله ﷻ أن يكون من أهلها – نسأل الله بعزته وجلاله أن يجعلنا منهم –.

يقول – عليه الصلاة والسلام –: **[(فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف)]** بيان لفضل الجهاد في سبيل الله وأنه طريق إلى الجنة، بل إن الجهاد في سبيل الله طريق لأعلى مراتب الجنة وهو الفردوس. ففي الصحيح عن رسول الله ﷺ: أنه لما استشهد عبدالله بن حرام ﷺ والد جابر، وجاء جابر فرأى أباه وقد سجي بالثوب، قال ﷺ: فطفقت أكشف الثوب عن وجه أبي وأبكي، فقال – عليه الصلاة والسلام –: (ابكيه أو لا تبكيه، ما زالت الملائكة تظله حتى رفعته إلى السماء) قال: يا رسول الله، أخبرني إن

كان أبي في الجنة صبرت، وإن كان في غيرها فعلت وفعلت. قال: (يا جابر، إنها جنان، وإن أباك قد أصاب الفردوس الأعلى منها). فأخبر النبي ﷺ أن الجهاد في سبيل الله طريق إلى الجنة، ولذلك وصف بأحب الأعمال إلى الله، كما في الحديث الصحيح عنه – عليه الصلاة والسلام – عن عبدالله بن مسعود – رضي الله عنه وأرضاه – أنه قال: سألت النبي ﷺ: أي العمل أحب إلى الله؟ قال: (الصلاة على وقتها) قلت: ثم أي؟ قال: (بر الوالدين) قلت: ثم أي؟ قال: (الجهاد في سبيل الله).

فبين – عليه الصلاة والسلام – أن الجنة تحت ظلال السيوف، أي: أن الجهاد في سبيل الله والضرب بالسيوف؛ لقتال أعداء الله وكسر شوكتهم: أنه طريق إلى الجنة، فهناك تشترى رحمة الله، وهناك سوق الجنة حيث ينتهي العبد إلى مرضاة الله ويخوض في رحمات الله ﷻ، كيف وقد باع أعز ما يملك بعد دينه وهو نفسه التي بين جنبيه! باعها لله ﷻ، فخرج من بيته لا يقطع واديًا ولا يسلك شعبًا إلا كتب له أجره، وضمن الله له أنه إن خرج فقتل في مخرجه أنه إلى الجنة، وأنه إذا رجع رجع بما حاز من أجر أو غنيمة.

[(والجنة تحت ظلال السيوف)] سيوف المجاهدين في سبيل الله لإعلاء كلمة الله، على نور من الله واتباع لسنة رسول الله ﷺ، وهو الجهاد الذي توفرت فيه شروطه وصفاته المعتبرة شرعًا.

ثم قال – عليه الصلاة والسلام –: **[(اللهم منزل الكتاب)]** هذا من التوسل إلى الله بالصفة، والتوسل إلى الله ﷻ بتوحيده وذكر صفاته وتمجيده من أسباب إجابة الدعاء. فوصفه بأنه أنزل الكتاب، والكتاب إن أريد به القرآن: فـ"ال" للمعهود الخاص، وإن أريد به جنس الكتاب: فيشمل جميع ما أنزل الله من الكتب، وهذا هو المراد. فإن تؤمل – كما ذكر العلماء – قوله: **[(منزل الكتاب)]** قالوا: لأن سبب الجهاد هو: إعلاء كلمة الله، وكلمة الله جاءت في الوحي، فجاء بالأصل والأساس الذي من أجله شرع الجهاد في سبيل الله. ثم

لما كان يحتاج المجاهد بعد الدين وسلامة معتقده وسلامة منهجه؛ لأنه قد يجاهد عن باطل، وقد يجاهد عن عقيدة فاسدة، وقد يجاهد عن وثنية، فبين صفاء العقيدة التي انطلق منها في الجهاد في سبيل الله ﷻ والسبب الذي من أجله جاهد.

[(ومجري السحاب)] وهذا إشارة إلى القدرة؛ لأن النصر يحتاج إلى قوة وقدرة، ولا يمكن أن يكون النصر إلا من الله ﷻ ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فالله ﷻ ينصر من يشاء متى شاء وكيف شاء وبما شاء. فبين – عليه الصلاة والسلام – أنه أجرى السحاب، فالذي له القدرة على إجراء السحاب قادر أن يجري أمره بنصرة أوليائه وهلاك أعدائه. السحاب تجرى وتسخر بين السماء والأرض بالريح، ولو شاء الله أن يرسل الريح فتهلك الكفار! ولذلك قال الله ﷻ في يوم الخندق: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ كفاهم بالريح، فأرسل عليهم الريح لا تبقي لهم ولا تذر حتى فرت قريش وغطفان والأحزاب. فهنا أشار – عليه الصلاة والسلام – إلى سبب النصر وهو: وجود القدرة والقوة.

[(اهزمهم)] أي: الأعداء **[(وانصرنا عليهم)]** فسأل الله ﷻ هذا السؤال الصادق من قلبه – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه عليه –: أن يكون منصورًا، وأن يجعل الهزيمة لأعداء الإسلام وأعداء دينه وشرعه. وهذا فيه دليل.. بسم الله، الحمد لله، والصلاة والسلام على خير خلق الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه. أما بعد: دل هذا الحديث على مشروعية الدعاء عند لقاء العدو، وأن هذا الدعاء سنة من سنن النبي ﷺ فيشرع الدعاء به؛ تأسيًا برسول الله ﷺ عند لقاء العدو.

واشتمل هذا الحديث – كما ذكرنا – على مسائل، من أهمها: حرص النبي ﷺ على توجيه الأمة في هذه الشعيرة – وهي شعيرة الجهاد في سبيل الله ﷻ –، وعليه: يعلم المسلم أن

الجهاد يفتقر إلى علم وفقه بهدي رسول الله ﷺ وكذلك هدي الكتاب، وإن كان هديه – عليه الصلاة والسلام – هو هدي الكتاب، فقد أدبه ربه وعلمه – صلوات الله وسلامه عليه –، وبين له صراطه المستقيم وسبيله القويم – بأبي وأمي صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إلى يوم الدين –.

وكان هديه في الجهاد في سبيل الله أكمل الهدي وأتمه، ولذلك كل من تأمل نصوص الكتاب والسنة في هذه الشعيرة وجد أنها من أعظم شعائر الإسلام، ولو لم يكن فيها إلا أن الله ﷻ لم يشرع الجهاد إلا في التشريع المدني بعد هجرة النبي ﷺ، فمكث الصحابة أكثر من ثلاثة عشر عامًا وهم يصبرون على أذية المشركين، ويصبرون على ما يأتيهم من البلاء في أنفسهم وأجسادهم وأموالهم، ثم بعد ذلك جاء الإذن من الله ﷻ بالجهاد في سبيل الله، حينما ربيت الأمة على الصبر، وقويت الأمة في التحمل والصبر، ولذلك من البشائر: أن الأمة إذا غزيت وأوذيت، وتحملت وتجملت: تهيأت لما هو أعظم من ذلك، فتحت الرماد نار، ودين الله ﷻ لا يمكن أن يطفأ، أو يدنس شعاره، أو ينكس مناره، فدين الله ﷻ غالب غير مغلوب، وبين الله في نصوص كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ أنه تكفل بهذا الدين وتكفل بكلمته، وأنه ﴿غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

وعلى المؤمن أن يدرك أن أزمنة الفتن والمحن الجهاد فيها عظيم إذا كان قد ترسم في أمره هدي النبي ﷺ، وتهيأ للصبر والرباط على الصبر، فقويت نفسه، وثبت جَنانه، وسدد الله لسانه، وعصم جوارحه وأركانه، فهذا من أعظم الجهاد؛ حتى يهيأ لإعلاء كلمة الله، فكيف يجاهد من عجز عن إعلاء كلمة الله في أهله وولده؟ وكيف يجاهد من لا يستطيع أن يأمر أولاده بالصلاة والزكاة؟! وكيف يجاهد من يمر على أولاده نائمين عن الصلاة مقصرين في طاعة الله؟!

فإذًا: هو وسيلة وليس غاية، ولذلك جعل الله الجهاد لإعلاء كلمة الله، فإذا كانت الأمة قد تهيأت للجهاد في سبيل الله ﷻ بالتمسك بكتاب ربها وسنة نبيها – عليه الصلاة والسلام –، وتهيأت حتى أصبحت قدوة ومثالًا: نصرت على أعدائها، ومكن لها في الأرض، وإلا لو مكن لها وهي مضيعة حقوق الله كأن التمكين لها يؤدي إلى ضياع الإسلام! ولذلك من الذي فتح الأمصار؟ أصحاب رسول الله ﷺ الذين كانوا أصدق الناس إيمانًا، وأثبتهم جنانًا، وأصدقهم قولًا وبيانًا – رضي الله عنهم وأرضاهم –، أمة زكت أرواحها وزكت نفوسها حتى أظهر الله ﷻ الإسلام في أقوالهم وأعمالهم، فكان الرجل منهم يذكر بكتاب الله وسنة النبي ﷺ في قوله وعمله. من الأمصار ما فتح بسيرة الصحابة – رضوان الله عليهم –، من الأمصار ما فتح بسيرة المسلمين في عدلهم وأمانتهم ونزاهتهم.

من أسباب النصر العظيمة – بل هو أساس النصر –: التمسك بالدين. ومن رأى الأمة في ضياع وضعف وخور فليعلم أن الله لا يظلم الناس شيئًا، وأن هذه الأمة عزتها بدينها، فإذا اعتزت بدينها أعزها الله، وكيف تنصر أمة ولم تأخذ بأسباب النصر؟! فليس بين الناس وبين ربهم إلا هذا الدين، ولذلك قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ فمن أراد الذكر والشرف فليتمسك بكتاب الله. فلما كان أصحاب رسول الله ﷺ قوامين الليل، صوامين النهار، كانوا مذكرين بالنبي ﷺ بعد وفاته: فتح الله بهم الأمصار، قال سعد ﷺ: "يا محمد، ارقب لي الجند في الليل" قبل وقعة القادسية – محمد بن مسلمة –، فراقب محمد بن مسلمة الجند في الليل فوجدهم ما بين قائم يتلو كتاب الله، وقارئ لكتاب الله، وجالس يذكر الله ﷻ، فلما أصبح قال: "يا سعد، أبشر! فما زال أصحاب رسول الله ﷺ بخير" فقال: "الله أكبر! ذللت لكم البحور، والله لتنصرن ما لم تصابوا بذنب من قاصية القوم".

من أسباب النصر: هذا التمسك بالدين؛ لأنه إذا تمسك بالدين وخرج للغير علم الناس الإسلام، أما إذا كان ضعيفًا مهزومًا في الإسلام: لا يستطيع أن يصلي صلاة الفجر ولا

يستطيع أن يقوم لصلاة الفجر، ولا يستطيع أن يقوم بشعائر الإسلام ولا يؤديها، فحري به أن لا يكون عالة وبلاءً على غيره.

كذلك من أسباب النصر: بين النبي ﷺ أسبابًا كثيرة، يقول – عليه الصلاة والسلام –: (وهل تنصرون إلا بضعفائكم؟!). فانظر – رحمك الله – إلى أمة إذا كان الضعيف إذا استصرخ استُصرخ، وإذا ضاع حقه أعطي حقه وأنصف ممن أخذ منه الحق: فعندها يفتح الله أبواب النصر على الأمة. أما إذا أصبحت تضيع حقوق الضعفاء والبؤساء، ويستصرخ المستصرخ ولا يجد نصيرًا ولا ظهيرًا، حتى في العامل يعمل عند الإنسان قد يظلمه أجرته؛ لأنه ضعيف غريب! فعندها لا تتأهل الأمة لنصر ولا ظفر. ونسأل الله بعزته وجلاله وعظمته وكماله أن يرحمنا برحمته، وأن يعيننا على اتباع كتابه وسنة نبيه ﷺ.

يقول المصنف – رحمه الله تعالى –: **[عن عبد الله بن أبي أوفى** رضي الله عنه: **أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى إذا مالت الشمس قام فيهم فقال: (يا أيها الناس، لا تتمنوا لقاء العدو واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموهم: فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) ثم قال النبي ﷺ: (اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)]**.

[...] أما بعد: فقد تقدم معنا الحديث عن مسائل هذه السنة الواردة عن رسول الله ﷺ. وقوله – عليه الصلاة والسلام –: **[(اللهم منزل الكتاب ومجري السحاب وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم)]** دعوة من رسول الله ﷺ في حال الضرورة التي يصدق فيها العبد ربه بالالتجاء والاحتماء والعوذ واللوذ بالله جل جلاله، بإله الأولين والآخرين وديان يوم الدين، الذي بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه. سأل ربه – عليه الصلاة والسلام – بهذه الدعوة التي نص العلماء – رحمهم الله – على أن من السنة: أن يدعو المسلم بها عند لقاء العدو. واستفتحها عليه الصلاة والسلام – كما تقدم معنا –